

المرجعيات الفكرية والفلسفية للبنوية التكوينية

Intellectual and Philosophical References to the Structural Structure

الباحث: عادل سعيدي¹، الباحث: أسامة لنصاري²Saidi Adel¹, Oussama Lansari²

مخبر الموروث العلمي والثقافي لمنطقة تامنغست

جامعة تامنغست (الجزائر)

,saidi05tam@yahoo.com - oussamalansary@gmail.com

رقم الهاتف 0655507274

تاريخ النشر: 2021-06-21	تاريخ القبول: 2021-04-03	تاريخ التحكيم: 2021-02-27	تاريخ الإرسال: 2021-01-13
-------------------------	--------------------------	---------------------------	---------------------------

ملخص البحث

لم تنشأ نظريات العلوم الإنسانية والمناهج النقدية من العدم، ولم تظهر فجأة، بل كان لتأسيسها أصول انبثقت عنها ومرجعيات استندت إليها، ولم يحد المنهج البنوي التكويني عن هذه القاعدة في تأسيسه، ويكفي التدليل على ذلك باستقاء لوسيان غولدمان من معين الفلسفتين المثالية والوضعية، واستطاعته تكييف أفكاره وإخراجها في قالب ماركسي جدلي بما يتناسب وقناعاته، لنتج أخيرا منهج البنوية التكوينية.

وستحاول الدراسة معتمدة على الوصف والتحليل الإجابة عن الإشكالية التالية: كيف استثمر لوسيان غولدمان أفكار الفلسفتين المثالية والوضعية في تأسيس منهج البنوية التكوينية؟

الكلمات المفتاحية: الفلسفة المثالية، الفلسفة الوضعية، لوسيان غولدمان، البنوية التكوينية.

Abstract :

Any theory that existed and any method found in the humanities was not born out of nowhere, its appearance was not sudden and was not born of the moment, but it had origins and references that were the cause of its emergence.

Lucian Goldman derived from a certain idealistic and positive philosophy, and he was able to adapt his ideas and direct them into a marxist dialectic template commensurate with his convictions, to finally deduce the method of structural composition.

Based on description and analysis, the study attempts to answer the following problem: How did Lucille Goldman invest the idealistic and positional ideas of philosophy in establishing a structural and formative approach?

Keywords: Ideal Philosophy, Positil Philosophy, Lucian Goldman, Formative Structuralism

مقدمة:

ارتبط ظهور البنيوية التكوينية بخلفيات فكرية وفلسفية كان لها الأثر البالغ في ميلاده ونشأته، فكل منهج في العلوم الإنسانية لم يولد من العدم، ولذا فإننا لا نستطيع أن نغض الطرف عن هذه الخلفيات الفلسفية بدءا من أفلاطون الذي يعد رائد الفلسفة المثالية ووصولاً إلى أوغوست كونت مؤسس الفلسفة الوضعية.

إن اللبنة الأولى التي قام عليها منهج البنيوية التكوينية تعود إلى الفكر الأفلاطوني الذي ينظر إلى الأدب على أنه محاكاة للواقع ومنه كانت الفلسفة المثالية التي استهلها أفلاطون، ومرت بأرسطو وديكارت ووصلت إلى هيغل، بعدها ظهرت الفلسفة الوضعية التي حررت الفكر الإنساني من سلطة وقهر الكنيسة وهذا بفضل فرانسيس بيكون وغاليليو وأوغوست كونت وغيرهم. لم تنطلق البنيوية التكوينية من فراغ بل ارتكزت على الأعمال السوسولوجية بدءا بأعمال كارل ماركس الذي يرى في النص الأدبي انعكاسا للواقع الاجتماعي لتعدل هذه الفكرة مع جورج لوكاتش ولوسيان غولدمان من بعده، لتنتج هذه الخلفيات التي أخذها غولدمان خصوصا من أستاذه جورج لوكاتش منهج البنيوية التكوينية الذي قدم مقولات وفرضيات حقق بها انتشارا واسعا في الساحة النقدية وستحاول الدراسة تتبع هذه الروافد الفلسفية واستجلاء تأثيراتها الفكرية على الناقد البنيوي التكويني لوسيان غولدمان :

1- الفلسفة المثالية:

تعد البنيوية التكوينية سيرورة متواصلة بخلفيات فكرية ومرجعيات فلسفية اتكأت عليها في تأسيس أصولها وتحصين قواعدها وقد كانت تحت جناحي كل من الفلسفتين المثالية والوضعية، إذ " مما هو مؤكد أن البنيوية التكوينية تمتد بأصولها إلى فلسفتين، هما الفلسفة المثالية والفلسفة الوضعية، باعتبار أن النظرية البنيوية انطلقت في قراءتها من البحث عن اللوغوس* أو المكون الباني لتنتهي إلى تفسير الشكل التعبيري أو البنية السطحية.¹

لقد ارتبطت الفلسفة المثالية ارتباطا وثيقا بشائتي (المقابل) و(المبعد)، وهي التي تجزم بأسبقية الوعي على المادة " الوعي أسبق في الوجود من المادة"²، إن من أهم مرجعيات البنيوية التكوينية هي المثالية الأفلاطونية التي ترى أن " الوعي هو المكون الباني للمادة أو الشكل، ومن هنا كان عالم المثل هو العالم الأصيل الذي يتماثل مع العالم الطبيعي القائم على التقليد، معنى ذلك أن فكرة المكون الباني تجدد جذورها وامتداداتها في الفلسفة المثالية الأفلاطونية"³.

يرتكز الإنتاج الإبداعي بعده فنا على مبدأ المحاكاة والتقليد -عند أفلاطون- وهذا يعني أن عالم المثل في جمهوريته الأفلاطونية يشكل الطرف الأول من الثنائية، وهو المقابل " وهذه الفلسفة تقرنا من النظرية التكوينية التي ترى بوجود تماثل بين البنية الدالة العميقة، وبين الواقع التاريخي والسياسي والاجتماعي"⁴ حيث إن هذا التماثل هو أحد الآليات الإجرائية للبنوية التكوينية المعتمدة في تفسير وتحليل الإنتاج الإبداعي، إن الطرح السابق هو نفسه الذي اعتمدته المثالية الجمالية والتي تقر بأن الفن هو تعبير عن مثل أعلى، والغرض منه ليس محاكاة الطبيعة، لأن " المثالية في علم الجمال مقابلة للواقعية، وتطلق على المذاهب التي تقر أن هدف الفن ليس مجرد محاكاة للطبيعة، وإنما هو تعبير عن مثل أعلى"⁵.

وبخصوص توظيف اللغة في مبدأ المحاكاة فيرى (أفلاطون) " أن هناك لغة وأسلوبا قصصيا يستعمله شعراء من ذوي مكانة رفيعة، كما أن هناك لغة وأسلوبا خاصا يستعمله شعراء من مكانة دونية هابطة يحاكون فيه شخصيات من شاكلتهم"⁶، إن أفلاطون في هذا الرأي يقر بوجود علاقة بين المبدع والعمل الأدبي، فالشاعر المبدع الذي يمتاز بأخلاق رفيعة لا يقول إلا شعرا

مؤدبا راقيا، ولا يكتب إلا عن أكرم الناس وخيارهم، أي إن المبدع النبيل لا يحاكي إلا النبلاء والعكس، فالشاعر الوضع لا يقول إلا كلاما مبتذلا، وهو عاجز أن يرقى في قوله وفعله إلى مرتبة الأخلاق الرفيعة.

لم ينقطع أفلاطون في بحثه عن الحقيقة الفلسفية الأبدية فهي ثابتة لا تتغير ولا يشوبها نقص، " لقد كان أفلاطون دائم البحث عن اليقين الفلسفي، ذاك الثابت الذي لا يتغير ولا يفنى، ولا اتصل إليه يد الزمن، ولا يعتوره النقص والضعف [...] ويجد أفلاطون عالم الحقيقة الذي سعى له في عالم أسماء عالم الصورة [...] الذي يتوصل إليه الفيلسوف من خلال العقل وهو أزلي، أما عالم المادة، فمجرد ظل زائل للحقيقة المطلقة"⁷؛ ليكون بذلك للفلسفة المثالية فضل السبق في اكتشاف فكرة المكون الباني، لهذا كان من البديهي أن تكون الجذور الأولى للبنائية التكوينية أفلاطونية.

وإذا ما انتقلنا إلى أرسطو فإننا نجد أنه لم يعالج الأدب في المجرد والمطلق، ولكن حله من خلال التعامل مع النص الأدبي بشكل مباشر بعدّه هذا النص كمكلا للفعل المحاكي، ولذا فإن فكرة المحاكاة عنده هي تفسير لثنائيتي الما قبل والما بعد، " فالمحاكاة هي التعبير السطحي للبنية العميقة الدالة، فالشكل الشعري محاكاة لفعل الشخصية، فالإبداع بوصفه شكلا (المابعد) نتيجة الطبيعة ل (الماقبل)⁸؛ إن للإبداع عند أرسطو صلة وثيقة بفعل الشخصية، وهو مرتبط بها، فالمحاكاة ليست هي الواقع الطبيعي، وإنما هي الأفعال والطبائع البشرية، لذا فإن المابعد هو تحصيل حاصل لوجود الماقبل.

إن مفهوم الشعر عند أرسطو له خصيصة وهي " عدم رؤية الأمور كما وقعت فعلا، بل رواية ما يمكن أن يقع، والأشياء ممكنة إما بحسب الاحتمال أو الضرورة"⁹، إن المعرفة عنده هي القراءة المنهجية التحليلية المتأنية العميقة التي لها رؤية استشرافية لما يمكن أن يحدث في الأحداث السابقة أو اللاحقة والتي تتطلب التنبؤ بما يقول أرسطو: " ينبغي على الشاعر في تصويره للشخصية أن يهدف دائما إلى تحقيق الحتمية أو الاحتمال [...] فإن أي حادثة تتلو الأخرى ينبغي أن يكون التتابع جاريا على مقتضى الحتمية أو الاحتمال [...] فالأحداث السابقة، أو الأحداث التي ستأتي فيما بعد تتطلب التنبؤ بها -أو الإعلان عنها- كما ينبغي ألا يقع بين الأحداث شيء غير معقول أو غير ممكن، ولكن إذا لم يكن من المستطاع تجنب استعمال غير المعقول أو غير الممكن، فعلى أن نقصره على ما هو خارج النص"¹⁰.

إن الإبداع الشعري عند أرسطو هو استشراف ورؤية مستقبلية لما يمكن أن يقع، وهو تعبير عن وعي قائم وممكن، فهاتان الميزتان من مرتكزات البنية التكوينية عند لوسيان غولدمان، وبهذا فإن أرسطو " لم ينطلق من نظام يفصل بين ما هو مادي، وما هو تجريدي في ثنائية متضادة، ولكنه انطلق من أن المادي والتجريدي موجودان في الشيء نفسه، وما النص الأدبي في شكله النهائي إلا تجسيد لهذه الوحدة"¹¹.

أما ديكارت فالذات الإنسانية عنده ماهية فكرية وانطلاقا من مقولته (الذات المفكرة)، والتي عدّها محور فلسفته، فالإنسان عنده يتكون من قسمين: ذات وبدن، إلا إنه يضع شرطا في غاية الأهمية للوصول إلى الحقيقة وهو الفصل بين الذات والجسم (البدن) " فالإنسان عند ديكارت ذات وبدن، وحتى يحقق الإنسان مأرب الوصول إلى الحقيقة/المعنى عليه أن يفصل الذات عن البدن الذي يعد في الفلسفة الديكارتية واقعا ماديا مقابلا للطبيعة في العلم التجريبي، أما الذات فهي مفكرة، لذا فعليها أن تبقى داخل النسق/العقل حتى تصل إلى الحقيقة/المعنى"¹².

لقد قامت الفلسفة بفصل الجسم عن الذات بدعوى أن الجسد يمثل الخارج الذي يعرقل عملية الوصول إلى الحقيقة واليقين، أما الذات، فهي تعبير عن الداخل من أجل هذا ستبقى وسطه (العقل) قصد بلوغ الحقيقة المنشودة، ونجد أن الفصل موجود في

المناهج السياقية التي كانت تعتمد في مقارنتها للنصوص الإبداعية على خارج النص؛ أي الظروف التي تحيط به، وهي في المنهج الديكارتي تعبير عن الجسد الذي يمثل الخارج، أما الذات التي تعبر عن الداخل، فنجدتها في المناهج النسقية التي تعتمد في مقارنتها للنص على مبدأ المحايثة، أي قراءة النص قراءة داخلية.

يعرف ديكارت بمقولته الشهيرة (أنا أفكر إذا أنا موجود)، والمتمعن فيها بدقة يجد أنه يشير إلى إحدى مركبات البنية التكوينية وهي البنية الدالة، وهي من أنتجت مصطلح الوجود الذي أشار إليه ديكارت "إننا نجدتها -مقولة ديكارت أنا أفكر أنا موجود- تحتل رؤية البنية التكوينية، فالتفكير الذي يشير إليه الفيلسوف ديكارت هو المكون الباني أو البنية العميقة الدالة، وأما مدلول الوجود، فهو السطح الذي أنتجته البنية الدالة، ومن هنا نكون أمام ثنائية الداخل/الخارج أي أمام اللوغوس والخطاب".¹³ استطاع كانط أن يقدم رأيا مخالفا للفلاسفة التجريبيين، الذين يقولون أن إدراك الحقيقة/المعنى لا يكون إلا عن طريق الملاحظة والتجربة قصد البرهنة على قواعد العقل، فالعقل بإمكانه إدراك الحقيقة، وله القدرة على ذلك دون الاستعانة بما هو خارجه أي دون اللجوء إلى الملاحظة والتجربة، "من هذا المنطلق بنى كانط فلسفته المثالية التي خالف فيها من سبقه [...] فمثاليته لا تنكر الأشياء كذوات يمكن إدراكها، بل أعطاها حق الوجود والاستقلال، إذ لم تعد التجربة منفصلة عن العقل كما يقول التجريبيون، بل أصبح كلاهما واحدا، التجربة تدرك داخل العقل".¹⁴

لقد كان للتفكير الفلسفي عند كانط وجود في المنهج البنوي التكويني، وذلك من خلال قدرته على استرجاع التوازن المفقود بين الفلسفتين المثالية العقلية والوضعية التجريبية، أي بين العقل والتجربة، وهذا الأمر نفسه الذي نادى به البنية التكوينية، حينما أكدت حرصها على جدلية الرؤية والأداة "إن فلسفة كانط تحضر بقوة في روح المنهج البنوي التكويني، إذ تبرز فاعليتها كفلسفة جاءت لتحقيق التوازن المفقود بين الفلسفة المثالية والفلسفة الوضعية، وتمثلته النظرية البنوية التكوينية، حينما أكدت حرصها على جدلية الرؤية والأداة أو البنية الدالة والشكل التعبيري".¹⁵

وعدّ هيغل مبدأ حتمية الذات الإنسانية في الوصول للحقيقة أمر لا بد من وجوده، وهذا المبدأ نادى به فلاسفة آخرون من أمثال ديكارت وكانط، لتصبح بعد إقرار هيغل مبدأ الجدل الفلسفة المثالية أكثر قوة ومتانة، فقد أكد هيغل "أن الحقيقة لها وجود ذهني، لكنها قادرة على أن تتحقق في الواقع عن طريق وجود محدد المعالم، فالمبدأ المثالي في فلسفة هيغل يتجلى في الوجود الذهني للحقيقة، الذي يعد المكون الباني الذي يتحقق عن طريق الشكل الذي تختاره الحقيقة لنفسها، وهنا يتجسد المابعد".¹⁶

إن المحاكاة في الفكر الفلسفي الهيجلي ليست مجرد نقل حربي للواقع وليست انعكاسا له، وإن كانت على هذا الشكل المفهومي، فهذا يعني أسرت الفن وضيق عليه وحرمة من حريته، ولذا فإن المحاكاة في التصوير الهيجلي تشكل ثنائية الما قبل والمابعد والعلاقة التي تربطهما وتجمع بينهما هي التناظر، "إن المحاكاة في المنظور الهيجلي تعد الآلية بين الما قبل والمابعد، والعلاقة بينهما علاقة تناظرية، فالما قبل هو الفاعل الذي يظهر المابعد وهو القابل أو الشكل التعبيري"¹⁷؛ فالما قبل عند هيغل هو سبب وجود المابعد، أي إن الفاعل يظهر أولا ليكون سببا في كينونة الشكل التعبيري أو القابل، فالمحاكاة لها دور وجود المكون الباني شرط أن لا تكون انعكاسا آليا له "والمحاكاة تقوم بدور التجسيد للمكون الباني، دون أن يكون ذلك انعكاسا حرفيا، ولو بقي الفن في مستوى الانعكاس الآلي، لبقى دون مستوى الطبيعة، وسيكون أشبه بدودة تجهد وتكد لتضاهي فيلا".¹⁸

إن كل إنتاج فني حسب هيغل عليه أن يتصف بخاصيتين هما: الوحدة والاختلاف، فالوحدة هي الفكرة الشاملة، كما أنه وضح العلاقة التي تربط المضمون الروحي والتجسيد المادي هذه العلاقة التي تحتل ثنائية الشكل والمضمون، "يلزم -حسب

هيجل - كل إنتاج فني أن يتصف بالوحدة والاختلاف، فالوحدة هي الفكرة الشاملة قبل أن تخرج إلى التعدد والموضوعية لكن هذه الوحدة لا يمكن أن تظل مغلقة على نفسها، وهنا تظهر ضرورة الاختلاف [...] إن العلاقة بين المضمون الروحي والتجسيد المادي هي ثنائية المضمون والشكل، فحين يتغلب الشكل على المضمون يعني احتجاج المضمون خلف الشكل فيظهر الفن الرمزي، وحين تتحقق الوحدة التامة والتوازن بين المضمون والشكل يظهر الفن الكلاسيكي¹⁹.

لقد أثرت أفكار هيجل الفلسفية في رائد البنية التكوينية وواضع أسسها لوسيان غولدمان، وقد أعجب بهذه الفكرة قبله أستاذه جورج لوكاتش، حيث برز هذا التأثير على مستوى مبادئ رئيسة كمبدأ الشمولية مثلا، الذي سهل على غولدمان صياغة نظرة تحليلية تفسيرية عن الفئات الاجتماعية، إذ " استطاع غولدمان أن يمتص الفكر الهيجلي، كما امتصه لوكاتش من قبله، حيث ظهر تأثير هيجل في النظرية الروائية، وبرز تأثيره أيضا في غولدمان على مستوى المقولات الكبرى أذكر منها مقولة الشمولية التي قادت غولدمان إلى تكوين نظرة تحليلية عن الطبقات والفئات الاجتماعية"²⁰.

2- الفلسفة الوضعية:

وبالحديث عن الجهة المقابلة للفلسفة المثالية، ظهرت الفلسفة الوضعية مخالفة لنظرية المحاكاة وأفكار كل من كانط وديكارت وهيجل، ففي نهاية القرن السادس عشر كانت الكنيسة هي المسيطرة وتضرب بيد من حديد كل من يتجرأ على مخالفة أفكارها وأوامرها، إنها لا تؤمن بشيء سوى الأساطير والخرافات التي رفعت من شأنها وجعلتها أساس التفكير في إبراز الحقائق وتفسيرها، وهي المصدر الوحيد الذي يجب الإيمان به، " إن الحديث عن العلم التجريبي في الفكر الفلسفي الغربي يعود إلى نهاية القرن السادس عشر، إذ فيه بدأ قهر الإنسان المفكر من قبل الكنيسة التي كانت تصدر كل ما يتصل بالتفكير العلمي، جاعلة من الأساطير والخرافات أساس التفكير الذي يجب إتباعه في تفسير الحقائق"²¹.

بقيت دار لقمان على حالها حتى ظهر في تلك الفترة علماء ارتبطت أسماؤهم بالفلسفة الوضعية من أمثال: فرانسيس بيكون وغاليليو وأوغست كونت وغيرهم، هؤلاء الذين استطاعوا مواجهة قهر الكنيسة خصوصا للإنسان المفكر وإبطال كل أساطيرها وخرافاتها التي بها تعرف الحقائق وتفسر، إن الفلسفة الوضعية ترى أن المعرفة الحقيقية تكمن في الواقع الذي بدوره يعتمد على الملاحظة والتجربة، " ترجع أصول الفلسفة الوضعية إلى المذهب الوضعي الذي يرى أن المعرفة اليقينية هي معرفة الظواهر التي تقوم على الوقائع التجريبية، وينطوي هذا المذهب على وجود معرفة تتجاوز التجربة الحسية"²²، وهذا يعني أن الفلسفة الوضعية اهتمت بما هو واقعي الذي يقوم على الملاحظة والتجريب بدل التأمل الوهمي الخيالي.

يعد فرانسيس بيكون أحد أقطاب الاتجاه الوضعي وواضع أسسه ولبناته الأولى، ويتضح هذا من خلال ما ورد في كتابه (في المبادئ والأصول) الذي تضمن مصطلح وضعي " الذي أراد به الحقائق التي يجب قبولها بصدق الخبرة، حيث أصبح مصطلح وضعي يطلق على مناهج العلوم الطبيعية لاعتمادها على الملاحظة والتجربة"²³.

لقد تمكن فرانسيس بيكون من تدعيم الفلسفة الوضعية القائمة على التجريب والملاحظة بإسناد إلى حقل دراستها الاستدلال الرياضي، الذي يعتمد على البرهان، فالرياضيات تحكم على الأشياء بالمنطق لا غير، إلا إنها في نظر بيكون تبقى عاجزة عن الوصول إلى الحقيقة، ما لم تتصل بالرياضيات بالتجربة والملاحظة، " لقد استطاع بيكون أن يدخل الاستدلال الرياضي حقل الدراسات التجريبية، فالرياضيات تجعل الحكم على الشيء منطقيا يخضع إلى الاستدلال والبرهان، إلا أنها حسب بيكون

قاصرة في الوصول إلى اليقين لأنها لا تتبع جزئيات الأشياء، وهذا ما يدعو إلى استكمال هذا القصور بإدخال التجربة والملاحظة مع الرياضيات، فيكتمل العلم وقتها"²⁴.

وعند مجيء أوغست كونت الذي تأثر بأفكار سان سيمون " تم التأسيس الفعلي للفلسفة الوضعية التي ظهرت في كتابه (محاضرات في الفلسفة الوضعية)، حيث نادى بضرورة قيام دين جديد يقوم على عبادة الإنسانية تحل محل عبادة الله -سبحانه وتعالى- في الأديان السماوية"²⁵.

لم تبق أفكار الفلسفة الوضعية حبيسة فرنسا، بل وسعت دائرة نطاقها وامتدت جذورها ونشرت أفكارها حتى وصلت إلى إنجلترا، فالفلسفة الوضعية تنكر وجود معرفة مطلقة حيث إن العقل البشري يمر بمراحل عديدة ليصل في الأخير إلى مرحلة نهائية وهي المرحلة الوضعية، وقد "زحفت الفلسفة الوضعية من فرنسا إلى إنجلترا، وأنشئت حولها جمعيات تركز على اليقينية في الظواهر التجريبية وتنكر وجود معرفة مطلقة، وأن العقل البشري يتقدم من المرحلة اللاهوتية إلى المرحلة الميتافيزيقية لكي يصل إلى المرحلة النهائية وهي المرحلة الوضعية"²⁶.

لقد استطاعت الفلسفة الوضعية بفضل انتشارها الواسع في فرنسا وإنجلترا أن تسيطر على الأدب والفن، إذ بتأثير هذه الأخيرة - الفلسفة الوضعية - أصبحت التجربة والملاحظة شيئين متلازمين عند الفن لا يمكن الاستغناء عنهما، " وتأثير الفلسفة الوضعية انعطف الفن نحو الواقع، وأضحى يهتم بكل ما هو واقعي وتجريبي، فالفكر لا يستطيع أن يتخلص من الخطأ إلا بعكوفه الدائم على التجربة، ويتخلص من أفكاره الذاتية"²⁷ ؛ وبفضل تأثير الفلسفة الوضعية في الفن والأدب انتقل تأثيرها إلى النقد الأدبي، فمن تجليات الفلسفة الوضعية في النقد الأدبي بروز نقاد من أمثال: سانت بيف، وهيبوليت تين وغيرهم، فقد دعا سانت بيف إلى دراسة الأدباء من مختلف الجوانب المختلفة للحياة الخلفية العقلية وخصائصهم الجنسية وعاداتهم وآرائهم، ثم ترتيبهم في فصول يرتبط كل منها بملامح مشتركة²⁸ ، ليؤكد هذا الرأي تأثير الفلسفة الوضعية في الدراسات النقدية.

واستفاد هيبوليت تين من آراء سانت بيف، وحاول أن يفسر الأدب من خلال ثلاثيته، وهي الجنس والبيئة والعصر، " ونتيجة تأثير هذه الفلسفة الوضعية، ظهر هيبوليت تين الذي حاول تفسير الأدب من خلال معادلة لها مؤثرات ثلاثة هي الجنس والبيئة والعصر"،²⁹ ولكي تتحجج الظاهرة الأدبية في نظر تين يجب أن تتفاعل هذه العناصر الثلاثة فيما بينها.

إن الأدب عند هيبوليت تين مرتبط بالمجتمع وواقعه، فهو انعكاس آلي له، كما أنه ليس وهما أو خيالا، إذ " ليس الأدب نزوة منعزلة وليس مجرد لعبة من ألعاب الخيال[...]. بل هو عملية انعكاس لعقلية معينة بمعنى أن الأدب عملية تسجيل لما حدث في الواقع الاجتماعي، فالأدب يحمل حقائق يمكن التحقق منها والتقضي عنها"³⁰، وعلى هذا الأساس نجد أن غولدمان يتفق مع هيبوليت تين في ارتباط الأدب بطبقات المجتمع، فهو ليس خيالا، وإنما له واقع خارجي يتصل بطبقات المجتمع، ويكمن الإشكال في كيفية نقل هذا الواقع الخارجي، ليظهر التباين والاختلاف بينهما، فإذا كان تين يتخذ من طريقة الانعكاس إجراء وآلية قصد فهم الظاهرة الأدبية وتفسيرها ودراستها منطلقا من كون الأدب نتاجا فرديا، فإن غولدمان يرى عكس ذلك، فالأدب عنده من نتاج الجماعة التي يعبر عن أفكارها وأحاسيسها وتطلعاتها.

ويعد لوسيان غولدمان الأدب فاعلا جماعيا، فهو لسان طبقة الاجتماعية والمعبّر عن وعيها في صراعها مع طبقة اجتماعية أخرى تخالفها، أي إن الأدب في نظره من نتاج الجماعة ليتفق غولدمان مع تين في عدم كون الأدب نزوة أو خيالا، إن الأدب له واقع خارجي مرتبط بالمجتمع وطبقاته إلا أن الاختلاف يقع في كيفية نقل الواقع الخارجي، " فإذا كان (تين) يؤمن بأن

نقل الأدب من طريق الانعكاس الآلي لعقلية معينة سجلت بدقة كل ما يحدث في الواقع، فإن (غولدمان) يؤمن بأن الأدب تسجيل لمجموعة من العقول كونت بأفكارها طبقة أو فئة أو جماعة تتعارض مع طبقة أخرى سائدة في المجتمع [...]. فالأدب في نظر (تين) من نتاج فرد، وفي رأي (غولدمان) من نتاج جماعة³¹.

ومما تقدم يمكن القول إن الفضل في ظهور البنىوية التكوينية يرجع إلى الفلسفتين السابقتين، المثالية (المقابل) والوضعية التي تمثل (المبعد)، هذا لأن هدف البنىوية التكوينية هو البحث عن إيجاد علاقة تربط بين الرؤية وآليات تشكيلها.

3- النقد الماركسي

أسس كارل ماركس النظرية الماركسية بمساعدة فريدريك إنجلز في الأصل نظرية في الاقتصاد تقوم على مبدأ يرى " أن الأفراد في المجتمع الإنساني يدخلون في علاقات إنتاجية، وأن مجموع هذه العلاقات الإنتاجية يشكل البيئة الاقتصادية للمجتمع"³².

لم يهتم كارل ماركس فقط بالاقتصاد بل كانت له وجهة نظر في الأدب الذي يخضع في نظر كارل ماركس للعوامل الاقتصادية والسياسية والتاريخية وغيرها، فالهيمنة البرجوازية على الأسواق العالمية نتيجة حتمية تؤدي إلى توحيد الآداب " إن انتشار الاقتصاد الرأسمالي أو ما يسميه ماركس وإنجلز الهيمنة البرجوازية على العالم يؤدي إلى توحيد الأسواق ومعه توحيد الآداب أيضا فيما يسميانه الأدب العالمي"³³، لقد آمن كارل ماركس بفكرة الصراع الطبقي، وهذه الفكرة تقر بوجود صراع دائم في أي مجتمع بين طبقتين؛ " فمثلا في المجتمع الرأسمالي هناك طبقة البرجوازيين، وطبقة البروليتاريا (الكادحة)، ويشترط وجود صراع طبقي بين هاتين الطبقتين بحكم تناقض عملهما، هذا الصراع هو الذي يسير حركة التاريخ الديالكتيكية الجدلية حتى تنتصر في النهاية وبشكل حتمي طبقة العمال (البروليتاريا) وهي الطبقة الكادحة، ومن الطبيعي أن يولد فن جديد يضع طبقة العمال في المركز"³⁴.

إن فكرة الصراع الطبقي في المجتمع التي قدمها ماركس موجودة في فكر مؤسس البنىوية التكوينية لوسيان غولدمان، وقد سهلت عليه صياغة أفكاره بما يتناسب وقناعاته، ولذا فإن أفكار كارل ماركس تعد الأساس الذي بني عليه منهج البنىوية التكوينية " إن النظرية الماركسية ومنهجها الديالكتيكي ومفاهيمها الإجرائية تبدو واضحة الورود في عمل غولدمان ككل... ويكفي للبرهنة على ذلك أن المفهوم المركزي في عمل غولدمان أي مفهوم (الرؤية للعالم) تم استيقاؤه من كتاب ماركس (العائلة المقدسة)"³⁵، كما صاغ لوسيان غولدمان إحدى الآليات الإجرائية للبنىوية التكوينية بعد أن أخذها عن كارل ماركس وهي مقولة (الوعي الممكن) من الكتاب نفسه الذي أشرنا إليه سابقا، فقد " اقتبس غولدمان مقولة الوعي الممكن من عبارة ماركس ذكرها في كتابه (العائلة المقدسة) ركز فيها على التمييز الضروري بين الوعي الفردي للعامل والوعي الطبقي للبروليتاريا"³⁶، وعلى هذا تعد النظرية الماركسية التي قدمها ماركس وإنجلز إحدى المرتكزات الأساسية التي سهلت على لوسيان غولدمان صياغة منهجه البنوي التكويني.

أثرى لوكتاش النظرية الماركسية بجملة من المؤلفات أهمها كتاب (نظرية الرواية) الذي كتبه عام 1915، ولم ينشر إلا عام 1920، وقد كان لهذا الكتاب النقدي " الأثر المهم في هذا المنهج النقدي، فيه يأخذ عن هيغل مقولة إعطاء المقولات الجمالية صفة تاريخية، وتؤكد نظرية الرواية أن الشكل الروائي هو انعكاس لعالم مخلخل، فيربط بين التطور الاجتماعي والتطور الأدبي في مضامينه وأشكاله"³⁷، وبحلول عام 1923 أضاف لوكتاش إلى رصيده أعماله كتابا آخر بعنوان (تاريخ الوعي الطبقي)، ففي هذا الكتاب يعمل لوكتاش جاهدا على إعطاء قيمة للذات، التي يجب عليها أن تتفاعل مع الموضوع لتنتج التاريخ، وعلى هذا الأساس

فإن لوكاتش يضع الذات مقابلة للموضوع، مثلما يقابل الوعي الوجود، لتبرز في حل كتابات جورج لوكاتش محاولات تحديد الفكر الماركسي وإعطائه صبغة البعد الجدلي.

لم يتوقف لوكاتش عن الكتابة ففي عام 1937 ظهر كتابه (الرواية التاريخية) الذي يعد إضافة إلى علم الجمال الماركسي " ففيه يعلن عن الفعل المتبادل بين التطور الاقتصادي والاجتماعي، وبين مفهوم العالم والشكل الفني الذي يشتق منه"³⁸ ، ويتضح من القول أن العمل الأدبي يرتبط ارتباطا وثيقا بالطبقات الاجتماعية والظروف الاقتصادية التي تحكمها، فلم تعد الرواية مجرد فكر إيديولوجي، بل أصبحت عند لوكاتش فكرة جمالية تظهر صوتا آخر قد يكون معارضا للذات نفسها، " لقد استفاد لوكاتش من أعمال هيغل الذي أقر بأن الرواية ملحمة برجوازية أفرزتها تناقضات المجتمع الرأسمالي، وهكذا عدّ لوكاتش الرواية جنسا أدبيا له بنية شديدة التعقيد متراكبة التشكيل تطورت عبر مجموعة مراحل، وهو لا ينظر إليها بوصفها ظاهرة معزولة أو جنسا أدبيا مستقلا، بل بوصفها لاحقة لأجناس أخرى، وهي بذلك منفتحة على مستوى الشكل والمضمون"³⁹ ، وبهذا فإننا نجد أن جورج لوكاتش في نظريته الروائية لم يرقى بفصل الشكل عن المضمون، فأى مقارنة للعمل الإبداعي تقتضي النظر في الشكل والمضمون ودراستهما معا.

لقد تأثر غولدمان بأستاذه لوكاتش واستطاع بلورة أفكاره مما حفزه على العمل أكثر لتأسيس منهج شمولي يتعامل مع الأدب ويحيط به من كل جوانبه، فقد أخذ عنه عدة مركّزات منها "البنية الدالة، الوعي الممكن، التشيؤ، النظرة الشمولية"⁴⁰ ، إضافة إلى المصطلح المركزي للمنهج البنوي التكويني الذي نعني به رؤية العالم، فقد " ألمح لوكاتش لرؤية العالم بالمفهوم التاريخي الفلسفي في دراسة عن بالزاك والواقعية الفرنسية "⁴¹ ، وهناك بعض المفاهيم الإجرائية الأخرى التي شكلت قاسما مشتركا بين أفكار لوكاتش ولوسيان غولدمان مثل: البنية الدلالية، النظرة الشمولية، الوعي الممكن، التشيؤ.

الخاتمة:

نخلص في الختام إلى مجموعة من النتائج تتعلق بالخلفية الفكرية الفلسفية للبنوية التكوينية:

- *- ترجع أصول البنوية التكوينية إلى خلفيتين فلسفتين هما: الفلسفة المثالية التي تشكل ثنائيي الما قبل والمابعد، وإلى الفلسفة الوضعية التي تقوم على فهم الواقع من خلال الملاحظة والتجربة .
- *- إن الفضل في ظهور البنوية التكوينية يرجع إلى الفلسفتين السابقتين، المثالية (الماقبل) والوضعية التي تمثل (المابعد)، هذا لأن هدف البنوية التكوينية هو البحث عن إيجاد علاقة تربط بين الرؤية وآليات تشكيلها.
- *- تعد الفلسفة المثالية أول من اكتشف فكرة المكون الباني، حيث ترى بوجود تماثل بين البنية الدالة العميقة وبين الواقع التاريخي والسياسي والاجتماعي وهذا الإجراء من مركّزات البنوية التكوينية.
- *- استطاع كانط استرجاع التوازن المفقود بين الفلسفتين المثالية العقلية والوضعية التجريبية، وهو الأمر الذي اعتمدته البنوية التكوينية من خلال حرصها على جدلية الرؤية والأداة .
- *- يتفق غولدمان مع هيغوليت تين في أن الأدب له واقع خارجي مرتبط بالمجتمع وبنياته وطبقاته فهو ليس نزوة أو خيالا، كما استقى لوسيان غولدمان مبدأ الشمولية من الفيلسوف هيغل كما أعجب بهذه الفكرة من قبله أستاذه جورج لوكاتش.
- *- ساعدت آراء ماركس ولوكاتش الناقد لوسيان غولدمان على تأسيس منهج البنوية التكوينية.

*- وافق لوسيان غولدمان أستاذه جورج لوكاتش في مقولات عديدة كانت فيما بعد مرتكزات لمنهج البنوية التكوينية منها البنية الدلالية، النظرة الشمولية، الوعي الممكن.

الهوامش والإحالات.

- ¹ - نور الدين صدار: البنوية التكوينية في المقاربات النقدية العربية المعاصرة، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2018، ص07.
- ² - شكري عزيز ماضي: في نظرية الأدب، دار الحداثة، بيروت لبنان، ط1، 1986م ص19.
- ³ - نور الدين صدار: نفسه ص08.
- ⁴ - نفسه ص09.
- ⁵ - نفسه ص09، إحالة الى جميل صليبا: المعجم الفلسفي، ج2، دار الكتاب اللبناني، بيروت لبنان، ط1، 1973، ص339.
- ⁶ - عيد الدحيات: النظرية النقدية الغربية من أفلاطون إلى بوكاشيو، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت لبنان، ط1، 2007، ص36.
- ⁷ - نفسه ص30.
- ⁸ - نور الدين صدار: نفسه، ص09، إحالة إلى: أحمد الجودة: بحوث في الشعرية مفاهيم واتجاهات، كلية الآداب و العلوم الإنسانية، صفاقس تونس، ط1. 2004 ص45.
- ⁹ - أرسطو طاليس: فن الشعر، تر عبد الرحمان بدوي، مكتبة النهضة العربية، القاهرة مصر، 1953 ص26.
- ¹⁰ - أرسطو طاليس: فن الشعر، تر إبراهيم حمادة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة 1982 ص180-181.
- ¹¹ - عيد الدحيات: النظرية النقدية الغربية من أفلاطون إلى بوكاشيو ص41.
- ¹² - عبد الغني بارة: المسارات الإستراتيجية للبنوية (قراءة في الأصول المعرفية)، مجلة فصول، العدد2004، ص64، ص56.
- ¹³ - نور الدين صدار: البنوية التكوينية في المقاربات النقدية العربية المعاصرة ص10.
- ¹⁴ - عبد الغني بارة: المسارات الإستراتيجية للبنوية ص57.
- ¹⁵ - نور الدين صدار: البنوية التكوينية في المقاربات النقدية العربية المعاصرة ص11.
- ¹⁶ - نفسه، ص12.
- ¹⁷ - نفسه ص12، إحالة إلى هيغل: المدخل إلى علم فكرة الجمال، تر جورج طرايشي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت لبنان، ط3، 1988 ص40.
- ¹⁸ - نفسه، ص40.
- ¹⁹ - عبد الله إبراهيم: المركزية الغربية إشكالية التكوين و التمرکز حول الذات، المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء المغرب، ط1، 1997، ص118.
- ²⁰ - نور الدين صدار: البنوية التكوينية في المقاربات النقدية العربية المعاصرة ص12.
- ²¹ - عبد الغني بارة: المسارات الإستراتيجية، ص54.
- ²² - نورالدين صدار: البنوية التكوينية في المقاربات النقدية العربية المعاصرة، ص12.
- ²³ - نفسه، ص13.



- ²⁴ - عبد الغني بارة: المسارات الاستمولوجية، ص54.
- ²⁵ - نورالدين صدار: البنيوية التكوينية في المقاربات النقدية العربية المعاصرة ص13.
- ²⁶ - نفسه: ص13.
- ²⁷ - نفسه: ص13.
- ²⁸ - محمد حافظ دياب، النقد الأدبي وعلم الاجتماع (مقدمة نظرية) ، مجلة فصول ، المجلد 04 ، العدد 1 ، 1983، ص61.
- ²⁹ - نورالدين صدار: البنيوية التكوينية في المقاربات النقدية العربية المعاصرة ص14.
- ³⁰ - عباس محمد رضا البياتي، إيناس كاظم شنباره الجبوري: عتبات البنيوية التكوينية ونقاط انطلاقها، مجلة كلية التربية الإسلامية للعلوم التربوية والإنسانية، جامعة بابل، العدد 25، 2016، ص456.
- ³¹ - نفسه : ص456-457.
- ³² - ميجان الرويلي، سعد البازعي: دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط3، 2002، ص323.
- ³³ - نفسه: ص324.
- ³⁴ - عباس محمد رضا البياتي، إيناس كاظم: عتبات البنيوية التكوينية ونقاط انطلاقها، ص458.
- ³⁵ - نفسه، ص458، إحالة إلى لوسيان غولدمان العلوم الإنسانية والفلسفة، تر: يوسف الأنطاكي، المجلس الأعلى للثقافة، 1996، ص26.
- ³⁶ - عباس محمد رضا البياتي، إيناس كاظم: عتبات البنيوية التكوينية ونقاط انطلاقها، ص458، محمد عزام: تحليل الخطاب الأدبي على ضوء المناهج النقدية الحديثة -دراسة في نقد النقد- منشورات اتحاد كتاب العرب، دمشق، 2003، ص225.
- ³⁷ - محمد عزام: تحليل الخطاب الأدبي على ضوء المناهج النقدية الحديثة، ص232.
- ³⁸ - نفسه، ص232.
- ³⁹ - أنور عبد الحميد الموسى: علم اجتماع الأدب- منهج سوسيولوجي في القراءة والنقد- دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 2011، ص198.
- ⁴⁰ - جمال شحيد: في البنيوية التركيبية، دراسة في منهج لوسيان غولدمان، دار ابن رشد للطباعة والنشر، دمشق، 1982، ص19.
- ⁴¹ - أنور الموسى: علم اجتماع الأدب، ص209.

